١ — من أدباء الحجاز

عبد العزيز الزمزمي

٩٠٠ — ٩٧٦ هـ

للأستاذ عبد الله عبد الجبار

إن كنت ؛ أيها القارئ الكريم — من أهل مكة المكرمة ، أو لم تكن من أهلها وقد أتيح لك أن تستمتع بتلك اللحظة الروحية ؛ لحظة الغروب بالمسجد الحرام وقد أخذت مكانك خلف بئر زمزم انتظارا لأداء فريضة المغرب ، فلا ريب أنك قد شهدت في (منظرة) مقام الشافعي رجلا مرتديا جبة بيضاء أو سوداء أو بين هذين من الألوان قد لاث عمامته على رأسه في رفق ، وأخرج من جيبه ساعته العتيقة مدلاة من شريط أسود ثم نظر فيها ثم رفع رأسه إلى أعلى قليلا ، بعد أن وضع يده اليمنى على خده وصدغه ، وإبهامه على صماخ أذنه ، ثم ارتفع صوته بالأذان صوب السماء بتلك النغمة التقليدية: الله أكبر الله أكبر — وهو يميل لفظ الجلالة إمالة طويلة ويخطف لفظ أكبر خطفة سريعة : يكررها هكذا أربع مرات، ولا يكاد صوته ينطلق حتى تتجاوب المآذن بنداء السماء ، وحتى تنطلق أفواه المصلين وقلوبهم وأرواحهم بترجيع النداء

هذا الرجل — أيها القارئ الكريم — هو أحد أفراد أسرة (الريس) التي اختصت بأن يكون لها شرف (رئاسة المؤذنين) في المسجد الحرام . ومن هنا كانت تسميتها (بالريس) بعد أن كانت تسمى في التاريخ بأسرة (الزمزمي) نسبة إلى بئر زمزم

وعن شخصية من شخصيات هذه الأسرة سيكون بحثنا هذا ، فتعال معي إذن نعبر جسر الزمن لنطل على تاريخ هذه الأسرة بمكة في القرن الثامن الهجري :

هذه الأسرة تنتمي إلى علي بن محمد بن داود البيضاوي الشيرازي الأصل : وقد قدم علي بن محمد هذا إلى مكة في سنة ثلاثين وسبعمائة هجرية عام قدمها الفيل من العراق فباشر عن الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن في خدمة بئر زمزم . ولما آنس فيه الرشد والخير والكفاية آثره بخدمة هذه البئر متنازلا له عنها ، وزوجه بابنته فولد له منها ولده أحمد وغيره من إخوته ، وأصبح في عقبه أمر البئر ومعها سقاية العباس رضي الله عنه . بعد ذلك تعال معي نتحدر مع الزمن لنشرف على القرن التاسع الهجري وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حيث نشهد ميلاد عبد العزيز الزمزمي وهو موضوع هذا البحث ؛ ففي سنة تسعمائة هجرية كان ميلاد هذا العالم الأديب بمكة ، وكانت بواكير طفولته في بواكير القرن العاشر الهجري ، وغير حياته الطويلة الحافلة بالتدريس والإفتاء والصلاح والتقوى والرحلات المختلفة إلى مصر والشام والمدينة واليمن وبلاد الروم حتى وافاه الأجل المحتوم وهو في السادسة والسبعين من عمره ، وتوفي بأم القرى . ويمضي نسبه على النحو الآتي :

عبد العزيز عز الدين بن علي بن عبد العزيز بن عبد السلام ابن موسى بن أبي بكر بن أكبر بن أحمد بن علي بن محمد بن داود البيضاوي

ثقافته وكتبه : وقد أخذ العلم عن كبار المحققين وجد واجتهد حتى ذاع صيته وبز أقرانه ، وأفاد كثيرا من العلم والتجارب من أسفاره المتعددة ، وكان شافعي المذهب ، وقد ارتحل إلى مصر في ريعان شبابه يطلب العلم على أيدي علمائها الأجلاء — ومن مشايخه أحمد بن موسى بن عبد الغفار المالكي الذي مدحه بقصيدة مطلعها :

أريج مسك الأسحار فاح خلال الأزهار

وقد تفتقت عقلية الزمزمي حسب إمكانيات عصره وكما سمحت له ظروف حياته عن مؤلفات شعرية ونثرية منها

١ — الفتح المبين في مدح شفيع المذنبين

٢ — فيض الوجود في شيبتي هود

٣ — شرح على مقامات الحريري

٤ — (نظم علم التفسير) وهو منظومة لطيفة كان الطلاب ولا يزالون يحفظونها بمدرسة الفلاح بمكة ، ولها شرح للشيخ منصور سبط الطبلاوي سماه : (منهج التيسير إلى علم التفسير)

وللسيد محسن بن السيد على المساوى المكى شرح لها سماه (نهج التيسير على نظم أصول التفسير) طبع فى سنة ١٣٥٢ ؛ وللسيد علوى مالكى العالم المكى المشهور فى العصر الحاضر حاشية على الشرح المذكور سماها (فيض القدير) وللشيخ يحيى أمان العالم المدقق والأصولى البارع بمكة شرح سماه (التيسير على منظومة علم التفسير) . وما زال الزمزمى يترقى فى مناصب العلم حتى أصبح عميدا لعلماء مكة فى ذلك الزمان . وقد ذكر القطبى فى تاريخه المرتب على السنين : « أنه فى السادس عشر من المحرم سنة ٩٧٦ قد وجه إلى الشيخ عبد العزيز الزمزمى تدريس المدرسة السليمانية بخمسين عثمانيا ، وكان رئيس علماء مكة يومئذ . » وقد مدحه منوها بعلمه أبو الفيض الصديق من قصيدة جاء فيها :

أجل جيران بيت الله قاطبة   علما إذا وصفوا فى مكة العلما

شعره : وللزمزمى ديوان شعر منه نسخة خطية بالمكتبة التيمورية ، وقد كانت من نسخها لى . وتقع نسخته فى ست وسبعين ومائة صفحة من الحجم المتوسط . ويشتمل هذا الديوان على ثلاثة أبواب وخاتمة

الباب الأول : (النبويات) وهى القصائد التى مدح بها النبى (ص) وقد رتبها حسب الحروف الهجائية ونظم مدائحه النبوية من أغلب حروف المعجم ، وترك الحروف الآتية : الثاء . والخاء . والذال . والشين . والصاد . والضاد . والطاء . والظاء . والعين . والغين . والواو : وقد استغرقت النبويات (١٠١) صفحة من نسختى . وربما أدخل فى هذا الباب قصائد ليست منه كقصيدته فى مدح ابن عباس ؛ وقصيدته حين زار مدينة عدن :

وقد عارض الهمزية والبردة وجعل قافية الأخيرة مفتوحة ، ويمضى مطلعها على هذا النحو :

أمن تذكر جرم جرمه عظما   أرقت فى الخد دمعا أم هرقت دما
أم البكاء لما أهملت جانبه   من طاعة قد بكت أرض لها وسما
فوت خطة رشد كنت مدركها   قصرت تقرع سنا بعدها ندما

الباب الثانى : مدح العلماء والصالحين وممن مدحهم الإمام الشافعى والشيخ ابن عربى ومحمد بن عراق

الباب الثالث : فى ذكر الكعبة المشرفة ومكة والحرم والحجاز والمشاعر المنيفة ، ويبدأ فى نسختى من ص (١٦٥)

ولا تجد فى هذا الباب إلا قصيدة واحدة طويلة تسبيا ذكر فيها المنازل من مخا إلى زبيد إلى مكة ، وذكر فيها الكعبة المشرفة ، وقد نظمها فى سيره من اليمن مع ركب الحج اليمانى :

الخاتمة : وفيها نظم خمسة أحاديث نبوية وإليك مثالا منها :

ومالك جنتى ونعيم جسمى   وقربك صحتى وجفاك سقمى
علام هجرتنى هجرا عنيفا   بليغا زائدا من غير جرم
فلا وصل ولا مكذوب وعد   ولا رؤياك فى طيف ملم
لقد أفرطت فى ظلمى فمهلا   حفظت حديث ظلم دون ظلم

وقيمة هذا الديوان الصوفية أكبر من قيمته الفنية ، وهذه النزعة الروحية كثيرا ما كانت سمة من السمات التى طبعت الحياة العقلية لكثير من المفكرين والمنتجين فى هذه البلاد فى كثير من العصور

ويخيل إلى أن الزمزمى كان مشدودا برباط وثيق إلى عالم ما وراء الحياة . ففى رحلاته الكثيرة المتعددة لا يكاد يهبط بلدا من البلدان حتى يكون من أول ما يقوم به زيارة هذا الضريح أو ذاك لالتماس البركة من هذا الولى أو ذاك ، ونظم ذلك كله شعرا صوفيا يرتاح له ضميره

وكان لا تلم به كارثة من الكوارث أو تحدق به أزمة من الأزمات حتى يشد رحاله إلى المسجد النبوى ينشد الفرجة من مقام النبوة العظيم

وربما كانت فرقته للحجاز على كره منه ، فهو يصرح بذلك فى شعره ، ويشكو إلى الله حالته الكئيبة الحزينة ، وبعده عن عياله وأوطانه وعن المشاعر المقدسة ومعاهد الطهر والإيمان ، ويستعرض أمام عينيه أيامه التى سلفت . فما أكثر ما ظل عاكفا بالمسجد الحرام يصلى حينا ويدرس حينا ويقرأ القرآن حينا ، وما أكثر ما وقف بعرفات ، فلقد حج أكثر من خمسين حجة فهل يتاح له الوقوف بها مرة أخرى ، وهل تتاح له بمنى ، المنى وهل يبصر نفسه بين أهله وذويه ، ورهطه وصحبه ، وقومه وإخوانه ؟ إنه يسجل كل ذلك فى شعره إذ يقول :

إلى الله أشكو من تباريح أحزانى   وبينى وبعدى عن عيالى وأوطانى
بحكم زمان ظالم جار واعتدى   على ومن قصدى عدانى وعادانى
ترى هل ترى أم القرى عين نازح   بجثمانه والقلب منه لها دانى

أعد لى حديثا عن مشاعرها وعن   معاهدها دامت معاهد إعان

وعن حرم الله الأمين ومسجد   حرام وبيت ضم أشرف أركان

فياطالما فى ظله ظلت عاكفا   لتدريس علم أو صلاة وقرآن

ومن عرفات است أنكر موقفا   تعرفته من قبل إبان عرفان

وقفت به نيفا وخمسين حجة   فكيف فى يجرى له ذكر نسيان

ألا ليت شعرى بعد فرقة جمعنا   بليلة جمع عائد عيشنا الهانى

وهل يأتى يوما تتاح لنا منى   إليها جمار الشوق أضرم من نيرانى

وأبصر نفسى بين أهلى وأسرتى

ورهطى وأصحابى وقومى وإخوانى

وللزمزى قصيدة نظمها فى سيره من اليمن إلى الحجاز مع ركب الحج اليمنى ذكر فيها المنازل من المخا إلى زبيد إلى مكة المكرمة . وقد بدأ نظمها (بدوقة) يوم الخميس ١٨ من ذى القعدة وأتمها بالليث يوم الأحد غرة ذى الحجة الحرام سنة ٩٥٨ هـ ؛ وهذه القصيدة تعتبر (خريطة شعرية) تبين لنا خط سير قاصد الحج من اليمن إلى مكة فى القرن العاشر الهجرى ، وفى مطلعها يقول :

ظمئنا فنودينا عن الشر غيتموا   وجئنا فقال الخير جئ وجيتمو

وما كان ذاك البعد إلا دجنة   جلاها اقتراب صبحه متبسم

نعمنا به من بعد بؤس أصابنا   فأذهب ذاك البؤس هذا التنعم

وأن الثوى فى أرض مكة جنة   وكل دنو من سناها جهنم

فوالله ما فارقتها عن كراهة   ولا لأمور بعة تتوهم

ولكن مقادير بها حكم القضا   وليس على حكم القضاء تحكم

رحلنا مطايانا إليها نؤمها   فياحبذا منها إليها التيمم

وبعد أن يذكر كيف مضت بهم المطايا من المخا إلى الزهارى وكيف أقاموا بزبيد ليالى ، وكيف راحت العيس وحاديها شوق ملح لقرية المنصور والفاعية يقول :

ومرت إلى (مور) ومنها تشاءمت   إلى (قطبة) والأفق بالليل مظلم

ومذ قصدت (جازان) جاز اقتصارها

فأضحت وحاديها عليها مخيم

وبعد أن يذكر عالية وأبا عريش التى كان مقامهم بها ثلاثة أيام يقول :

ومنها إلى صبيا بنا العزم قد صبا   وكان لنا فى (بيش) شأن ملثم

وبعد أن يذكر وادى بيش وعتود يشجل كيف بدت لهم فى الشقيق وجوه توسموا فيها عصيان السلاطين :

ولما دخلنا فى (الشقيق) بدت لنا   وجوه بعصيان السلاطين توسم

ومنها انصرفنا للغدير الذى على   (عريب) بواديه الزبالع أقدموا

ومنه مسير الركب نحو مغيزل   عادى به والعيس للورد حوم

فرت إلى (ذهبان) ذاهبة وقد   حلا عندها الماء الذى منه ينجم

وبعد أن يمضى قليلا يأسى للعيس كيف كانت تئن من العجز وكيف دقت بكلكلها الثرى فى (دوقة) وكيف أثابت بعد أن أقامت بها يومين ، وكيف جازت مسيل الواديين ولم تقف به والليل أسود حالك ؛ وإعامضت فى سراها سواد الليل وطرفا من النهار . حتى إذا اعتلت الشمس ساروا إلى (ذكوان) وكان لهم فيه مقيل غير محمود ؛ فقد بلغ الإعياء بهم مبلغا عظيما . وكانت الشقة بعيدة ، وكان الماء علقما والتمسوا (المجور) فلم يجدوه . . ثم ساروا حتى إذا وصلوا (الليث) لم يطيلوا المكث به ، بل راحوا (للهضب) حتى إذا صاحت حداة الركب : (هذى يلملم) ألمت بهم الأفراح واهتزت نفوسهم طربا وأناخوا ركابهم ونزلوا واغتسلوا وصلوا ولبوا وأحرموا وكان للركب ضجيج ، وكانت عيونهم تذرى الدمع فرحا ، ولم يمكثوا هناك إلا بمقدار ما أدوا به شعار النسك ، واستهلوا بلبيك اللهم لبيك ، ومن ثم يمموا نحو البيت الحرام وهم يجهشون بالبكاء :

وفى (دوقة) دقت بكلكلها الثرى   وقامت على عجز تئن وترزم

ولكنها من بعد يومى إقامة   أثابت فسارت وهى للركب تقدم

وجازت مسيل الواديين ولم تقف   به والدجى بين المسيلين مقتم

وسارت إلى (ذكوان) حين ذكا اعتلت

وكان لها فيه مقيل مذمم

هزال وإعياء إلى بعد شقة   وقد عدم المجور والماء علقم

وما طولت مذ جاءت (الليث) لبثها

(وللهضب) راحت والحداة تترجم

ألمت بنا الأفراح لما تباشرت

وصاحت حداة الركب هذى (يلملم)

أنيخوا المطايا وانزلوا وتغسلوا   وصلوا ولبوا خاضعين وأحرموا

فكم ضجة للركب ثم وجولة   وكم مقلة تذرى الدموع وتسجم

القوة المادية والإيمان بالمثل العليا

للدكتور محمد يوسف الهندي

لئن سجل تاريخ القرن الماضي انقضاضا من الأمم الغربية المتفوقة فى العدة على الشعوب الشرقية الكثيرة العدد؛ فقد شاهد الجيل الحاضر تنافسا بين الدول الغربية — تنافسا قد أدى إلى صراعين طاحنين. وها هو ذا شبح الحرب الثالثة يلوح فى الأفق، ويقض مضاجع الإنسانية جمعاء، لا فرق فى ذلك بين الذين « لم يريقوا ملء محجم » وبين الذين « دقوا بينهم عطر منشم »

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى اتجهت نيـــة الأقوياء المنتصرين إلى إنشاء نظام يكفل للعالم السلام والهدوء على ما قالوا، ولكن هذا النظام لم يكن فى الواقع يكفل شيئا غير الأوضاع القائمة إذ ذاك لصالح الذين كانوا يرون من حقهم احتكار السيادة على العالم، ولذلك انهار ذلك النظام على أيدى من رأى أن ينازعهم هذا الحق بالقوة (وقد أعيدت التجربة نفسها مع إدخال بعض التحسينات بعد الحرب الأخيرة)

وقد صادف هذا الاتجاه — أعنى اتجاه الأقوياء إلى إبعاد إمكان الحرب فيما بينهم — نضج الوعى القوى فى الشعوب الأسيوية والأفريقية المستعمرة، فبدأ مفكروها وقادتها يبحثون عن الوسائل التى يمكن بها لتلك الشعوب التخلص من نير الاستعمار واسترداد السيادة لأنفسهم على بلادهم، وقد واجه جميعهم مشكلة قهر القوة الغاشمة لتحقيق الحق الأعزل، وإنها لدراسة ممتعة جدا أن يعقد الواحد مقارنة بين الأجوبة التى أتى بها زعماء الشرق الحديث فى الأقطار المختلفة على هذا السؤال، وخلاصة القول أن عددا غير قليل من الذين كانت زعامتهم ترتكز على مقدرتهم لاستثارة الجمهور فقط تجنبوا رسم خطة محدودة فى هذا الصدد؛ بل إنما استتروا بخطب بلاغية وتصريحات جدلية هى عبارة عن التمسك بالحق والعدالة والتهديد بالإضرار ببعض مصالح المستعمر هنا وهناك. أما الذين سما فكرهم إلى درجة الفلسفة وتنظيم خطة عامة بعيدة المدى فانقسموا قسمين: بعضهم انتهج نهج الاستهانة بقوة السلاح وتعيير القوى باستعمال القوة والعنف، حينما ذهب البعض الآخر إلى مقاومة القوة بالقوة آملين بأن كثرة العدد ربما تفوق وفرة العدة. وقد جرب كثير من الشعوب الشرقية الخطة الأخيرة ولا سيما فى بداية عهد الاستعمار فرأت عواقبها وخيمة، ولذلك أقبلت على الخطة الأولى فدرستها بإعجاب وإن لم تقبلها كمبدإ للحياة القومية

ولنستعرض الآن آراء إقبال، الفيلسوف الشاعر الذى احتفـــل منذ قريب بالذكرى الثالثة عشرة لوفاته، فى المسائل التى قدمناها آنفا. لا يفوت إقبالا أبدا أن يحذر من الاستخفاف بالقوة أو إهمال أية وسيلة من وسائل الحصول عليها، فهو لا يتأثر مطلقا مما يوجهه بعض الناس إلى الإسلام من نقد بناء على روح الجهاد فيه. بل يقول:

« إن الذى يرتجف العالم من بطشه وسفكه هو أولى بأن يلقن مبدأ ترك الجهاد . . . لقد تدججت أوربا بالسلاح للدفاع عن أبهة الباطل . . . إذا كانت الحرب شرا فى الشرق فهى لا بد وأن تكون شرا فى الغرب أيضا ... أما محاسبة الإسلام والصفح عن أوربا فذلك ليس من الحق فى شىء »

وكذلك يسخر إقبال من خطة تعيير القوة بالقوة حينما يقص علينا قصة قطيع من الغنم وقع فيه الأسد؛ فتقدمت شاة كانت قد أوتيت دهاء لتتزعم القطيع، فاقتنعت فى نفسها بأنه من المستحيل أن تتحول الأغنام أسودا إلا أنه يمكن أن ينحط الأسد إلى درجة الأغنام، وذلك بحمله على الاستحياء من نفسه وقوته، فبدأت تلك

وما مكثوا إلا بمقدار ما أتوا   به من شعار النسك ثمت أحرموا
بلبيك لبيك استهلوا وأجهشوا   ومن ثم للبيت الحرام تيمموا

ثم بدت لهم معالم مكة:

وصرح بالأسماء الحداة و[illegible]روا   وغنوهمو عذب المقام وزمزم
وذا بيت رب العرش ما دونه سوى   ستور عليه بالجلالة ترقم
فألقت عصاها واستقر بها النوى   وقر عيونا باللقاء المتيم

للبحث بقية — عبد الله عبد الجبار

مدير البعثة السعودية بمصر